

يا غازي... عليك رحمة الله!

للأستاذ علي الطنطاوي



عليك رحمة الله
(يا غازي) الحبيب،
يا نغر الشباب، يا من
لم يتعم بالشباب
باسيد العرب، يا من
روع فقه العرب.
يا بدر المراق الآفل،
يا أمل الشام الناهب
يا دنيا من الفتوة
والبطولة والنبل
طواها كف الموت

(يا غازي) عليك رحمة الله!

بالأمس استصرختك وأنت أملنا وملاذنا، وأنت عوننا على
الدهر الظالم، والعدو الفاشم، أفأقوم اليوم لأرتيك يا أملنا
ويا ملاذنا؟ أقف على قبرك الطرى مودعاً وبياكياً، وقد كنت
أقف على بابك العالي مستنياً ومستصرخاً؟ أأخطبك اليوم من
وراء التبر وقد كنت بالأمس ملء الكون حياة وقوة وشباباً؟
ليتني ما عشت حتى أرى هذا اليوم! ليت يدي ما طاوعتني
حتى أكتب هذا المقال! ليتني ما بقيت حتى أرتيك يا غازي!
(يا غازي) جل المصاب وما لنا فيه يدان! (يا غازي) عظم الخطب
وصاقت الحيلة! (يا غازي) لو كان يفتدي ميت لفداك العرب
بأنفسهم! (يا غازي) قد قدناك فمليك رحمة الله!

على شبابك الكامل، على بطولتك النادرة، على أيامك الحلوة،
على ذكرياتك الخالدة، على روحك الطاهرة (يا غازي) رحمة الله!

أفي عشرة أيام يدور الفلك، وتبدل الدنيا، ويستحيل عيد
مولد الملك الشاب الحبيب، إلى ماتم الملك الشاب الحبيب؟
أفي عشرة أيام تمر دنيا كاملة، تبدأ بأعظم عيد عرفه هذا

الشعب هو عيد ميلاد (غازي) ونحتم بأجل مصاب رآه، وهو
المصاب (بناري)؟

من كان يظن وهو يشهد أفراح هذا الشعب في (٢١ آذار)
يوم الربيع الطلق، ويوم (غازي) الذي كان أسرع من الربيع
وأبهى، أن الفجعة الكبرى كالمئة في الند القريب، وأن هذا
الشعب سيلطم وجهه ويمزق ثوبه حزناً على (غازي)؟

أأحسست بالند القريب فذهبت تستعجل القدر لتهي "لأمتك
كل شيء قبل أن تمضي، فمرضت جيشك يوم الثلاثاء لتؤكد
لها القوة والأيد، وفتحت السدة يوم الأربعاء لتضمن لها الحضارة
والخصب، وعطفت على آلام سورية لتنشي لها الوحدة والمزة،
وأجريت الخيل يوم الجمعة لتعلم وليدك الصغير كيف يكون فارساً
قبل أوانه، كأنك شعرت أنا سنفجع فيك قبل الأوان؟

لقد كنت قريباً منك يوم (عرض الخيل) قرأت في عينيك
وأنت ترأب ابنك معنى من معاني النيب ولكني ما أدركته،
ومن أين يخطر على بالي أنك كنت تودعه، وتفكر فيه كيف يفقد
أباه ويجد الملك، فلا يدري ما الملك ولا ينادي: بابا...؟

من كان يظن أن الملك الشاب ابن الخمس والعشرين يموت؟

من كان يظن أن هذه الهبة الكبرى إنما هي استعجال
للقدر، وأن هذه الأيام العشرة إنما هي الخاتمة البارعة لتلك الحياة
البليغة...؟ ولكن هل تم كل شيء حتى تستريح (يا غازي)؟
لقد وعدت (وقد العروة) أن تشرفهم بلقائك وما عهدناك أخلفت
قبل اليوم وعداً. لقد كمل الجسر العظيم الذي لم ينشأ مثله في عهد
الرشيد والمأمون، فأين أنت لتفتحه بيدك، وتخطو فيه أول
خطوة؟ لقد وصل الخط الحديدي إلى الموصل أفلا تفضلت فرعيته
وانتجته؟ لقد أجمت أمة الشام على نصبك ملكاً، وتسليمك
عرش أيبك على رغم الظالمين، فأين أنت لتسكن قصر أيبك
في دمشق وتحتل عرشه فيها؟ لقد تهبأ العرب ليمشوا تحت لوائك
إلى قم المجد وذي العظمة، فتقدم يا قائد العرب يا مليك؟

وأين قائد العرب؟ أين اللبيك؟

لقد مشى إلى رحمة الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

أحين اشتدت العضلة، واستحكمت الأمر، ورجوناك للخطب
لا يرجي فيه إلا أنت..؟

إن الشام الذي نادى بك مليكاً منذ أيام وكننت أنت أمله
لم يبق له أمل ، فهو يبكي فيك اليوم كل شهيد من شهدائه .
إنه كان يحبس دمه من أجلك فلمن يحبس الدمع من بمدك ؟
إن المعجوز التي كانت تتلقى ابنها القتيل وهي تهتف باسمك ،
لم يبق لها من تهتف باسمه من بمدك :

(يا غازي) من لأطفال الشام ، من لنسائه ، من لضمافه الذين
يسومهم القوى ألوان الخسف ؟ (يا غازي) من لهم ، وباسم من
يهتفون من بمدك ؟

(يا غازي) ما تيمم لفقدك فيصل الصغير وحده ولكن فقدك
يتم كل عربي . ما تيمم فيصل الصغير ، أبدأ ما تيمم ، إن كل عربي
له أب وخادم وصديق ، إن له في قلب كل عربي مكاناً !

* * *

أحقيقة أنهم أودعوك جوف الثرى ؟

(يا غازي) إني والله ما أصدق أنك مت !

(يا غازي) لقد سمعت الخبر فكذبته ، ولمت ناقله وانتظرت
أن أراك طالماً علينا ، تمر مرّ التميم الناعش ، مرّ الرجاء الجلو
بخيال الآيس الحزين ، تبحي شمعك ، وتسبغ عليه القوة والحياة
بابتسامتك النيرة وفتوتك الباسلة ؛ وطفقت أراقب الساعة أحسب
الوقت فلم تمرّ ، فشككت ولكني لم أصدق ما قال المرجفون ،
ورأيت النساء يبكين ويندن ، فبكيت والله ، ولكني لم أصدق
ما قال المرجفون ... وشاهدت بغداد وملء شوارعها البكاء
والحسرة والندب ، ولبت أشك ولبت أرجو ، حتى سمعت المدافع
ووعيت الصيحة ، فلم يبق شك ولم يبق رجاء ... لقد تحقق النبأ
قوا حسرتاه ... لن نراك (يا غازي) طالماً علينا ، لن نبصر من
بمد موكبك ولا ابتسامتك ولا نحيبتك ، يا غازي في ذمة الله
وأمانه ، يا غازي عليك رحمة الله

* * *

يا أهل بغداد !

مات غازي فابكوا واندبوا ، فلي مثل غازي يحلو الندب والبكاء .

يا أهل بغداد !

ما نجتم فيه وحدكم ، ولكنها نجمة العرب بسيد العرب ،
لقد كان منار رجائنا (مشر الشاميعز) فانطلقاً النار . لقد كان لنا
مناط الأمل . لقد كان لنا كل شيء ... يا أهل بغداد كلنا
في المصيبة سواء

أحين تملقت بك الآمال ، وأقبلت عليك القلوب ، وغدوت
حبيب الشعب الفدى .. ؟

أحين تمت بك الأفراح ، وكادت تتحقق بك المنى ... ؟
الهم لقد حرمت كل شيخ منا ابنه ، وكل فتى أخاه ، وكل
سبي أباه ، حين أخذت سيدنا وجبيننا وملكننا غازي !
الهم فارزقنا الصبر ، وأين منا الصبر ؟

* * *

(يا غازي) ارفع رأسك ساعة وانظر إلى شعبك . إنه يحار
ماذا يصنع ، فهو يسكت واجماً ثم يثور نادباً ، ثم يستفزه الألم
فيقرع الطبول ويرقص رقصة الأيس . إنه يحمل صورتك مجللة
بالسواد فلا يراها أحد حتى يبكي . على أنهم حملوا صورتك
في الأثدة ونقشوها على صفحات النفوس ، فأت من كل قلب
حبته ، ومن كل عين سوادها ؛ اسمك آهة على كل لسان ، ودمعة
في كل مقلة ، وخفقة في كل فؤاد ، وسناحة في كل بيت عربي ...
فيا غازي ، عليك رحمة الله !

* * *

لقد لحقني اليوم طفل ما أحسبه بلغ الرابعة ، فجعل يطلب مني
بالحاح ويشير بيديه ؛ فأعطيته قلنين فألقاهما في وجهي ، فزدهما
فري الأربعة ، ففتهمت قصده فإذا هو يطلب شارة سواد كالتي
أضعها في صدري ليملن بها الحزن عليك ، فدفعها إليه فانصرف
وهو يذكر اسمك ويبكي !

لقد رأيت مجوزاً تنظر إلى رسمك المجلل بالسواد وتبكي بحرقة
كأنما تبكي فيك ولدها الوحيد ، وهي تظن أنه ما يراها من أحد
إلا الله !

لقد أغمى على كثير من الطلاب والطالبات لما سقط عليهم
الخبر الأسود . لقد احمرت من اللطم صدور وخدود يؤذيها
مس النسيم !

يا غازي ، يا أيها الفتى القوي ، يا أيها الفارس الطيار ، ألم تمد
نستطيع أن ترفع رأسك مرة أخرى لترى ما صنع شعبك ؟
لقد مت من القضاء مرة . ولكننا متنا من الحزن ألف مرة ،
وسنموت من الحزن ألف مرة ، ولن ننساك (يا غازي) ، مثلك
ما ينسى !

* * *